تراث الإنسانية

NYROUF

الخصائص

لابن جنى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. الحسينى عبد المجيد هاشم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

الشيخ محمد النجار فى مقدمة الجزء الأول من الخصائص نصوصا من كتبه تدل على اعتزاله الصريح ص ٤٢، ٤٣ من المقدمة وعقب عليها بقوله الدقيق ص ٤٤.

على أن ابن جنى لا يتقيد بمذهب المعتزلة ويذهب إلى ما يراه الحق وماهو أدنى إلى النصفة. ومن ذلك ما نراه فى كلامه عن اللغة وهل هى اصطلاح أو توقيف، فقد ذكر رأى التوقيف ثم قال فى الخصائص جـ ١ ص ٤١ «واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه والانطواء على القول به» وهذا منهج أهل السنة وهو فى هذا البحث يتوقف فى شأن اللغة مخالفا مذهب الاعتزال وهو الجزم بأنها اصطلاح وتواضع. وتراه فى ص ٤٨ فى مبحث علل العربية يذكر أن علل الفقه أعلام وأمارات لوقوع الأحكام. وذلك منهج أهل السنة، لأن المعتزلة يرون أن علل الفقه مؤثرة فى الأحكام الشرعية باعثة عليها.

الرأى فى تشيعه

هذا ما يخص اعتزال ابن جنى، أما ما يخص تشيعه فقد حرص أكثر مؤرخيه على أن ينفوا هذا

التشيع عنه. مع أن مظاهر التشيع بادية فى قوله وفعله. فهو يذكر أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه بالصلاة عليه دأب الشيعة كقوله فى باب الاشتقاق الأكبر «ومنه قول علىّ صلوات الله عليه: إلى الله أشكو عجرى وبجرى. كما كان يستن سنة آل بويه فى الأخذ برسوم الشيعة محتفلا محتشدا، وقد قيل فى ذلك أنه يصانع الرؤساء فقط، وذلك مما يشينه لو صح لأن التشيع المعتدل ليس موضع مؤاخذة يلجأ إلى المصانعة، وما نظن ابن جنى جاوز حد الاعتدال فى هذا التشيع، وأوضح ما يدل على تشيعه الخالص أنه سمى أولاده الثلاثة عليا وعلاء وعاليا فى حرص أكيد على المادة المعزوة إلى أمير المؤمنين كرم الله وجهه وكان فى تسميته ولداً واحداً بعلى ما تتم به المصانعة المزعومة لو صحت لدى التحقيق، أما أخذه مأخذ البصريين فى النظر النحوى فلم يكن على وجه الالتزام المطلق. وهذا ما يدل على تحرر فكرى واسع يضيق بأمثال ابن جنى عن التقيد فى دائرة محدودة، وكأنه يرى نفسه وارثا لكل عالم فى العربية سبق برأى جيد بصريا كان أم كوفيا أم بغداديا، وقد كان كثير النقل عن ثعلب والكسائى كما كان يكثر عن المبرد وسيبويه، وولوع

مؤرخى النحاة بتقسيم العلماء إلى مدارس عملية هو الذى يقصر عالما متعدد الأنحاء على نحو واحد فى رأيهم حين ينظرون إلى طابعه العام دون تدقيق، واذا كان ابن جنى قد خالف أستاذه الحبيب أبا على دون أن يتعصب لكل ما قال فهو أكثر مخالفة لغيره اذا اتضح له من النظر القوى ما يدعو إلى هذا الخلاف.

مذهبه الفقهى

وقد استظهر الأستاذ النجار فى مقدمة الخصائص أن ابن جنى كان حنفى المذهب لنصوص توحى بذلك من مثل قوله «وكذلك كتبه محمد بن الحسن رحمه اللّه انما ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها مثبوتة فى أثناء كلامه يتجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق» الخصائص جـ ص ١٦٣ فقوله أصحابنا يعنى به أتباع أبى حنيفة، إلى شواهد أخرى تنحو هذا المنحى، وكأن قياس أبى حنيفة كان الملهم له فى كثير مما عالجه من الأقيسة الصرفية، هذا إلى وقوفه على الجدل الكلامى عند المعتزلة، وكأن فروع العلم جميعها أصبحت روافد تزيد من أفقه الاستنباطى بل أنها تعدت ميدان البحث العلمى إلى مضمار السلوك الخلقى

فأورثت صدره رحابة فسيحة تتسع لمضايقات الحياة التى لا يلقاها الا ذو حظ عظيم من النظر البعيد، ومن هنا جاء تغاضيه المتساهل عن مضايقات ذوى السماجة من معاصريه.

كذلك كان زميله النحوى على بن عيسى الربعى على شذوذ مطبق فى تصرفاته الشخصية فكان يصادف من أبى الفتح صدرا فسيحا وربما جاراه فى بعض شذوذه ابقاء على رضاه.

ويظهر أن احساسه بعوره لم يكن بالغ الشدة، اذ أشار إليه أكثر من مرة فيما نظم من الأبيات، وبعض ذوى العاهات الحسية يتجاهلون آفتهم فلا يلمون بها فيما يبدعون من قول ولن يدل ذلك على استخفاف بها قدر ما يدل على اهتمام غلا. فكبت كل هاجس يوحى بالقصور. ومما نظمه أبو الفتح فى ذلك قوله متشوقا لبعض أصدقائه:

صدودك عنى ولا ذنب لى
دليل على نية فاسدة
فقد وحياتك مما بكيت
خشيت على عينى الواحدة

ولولا مخافة ألا أراك

لما كان فى تركها فائدة

وهى أبيات تعطى المثال الجيد لنظم ابن جنى، اذ أن خاطره كان يسنح بين الفينة والفينة بقصائد جيدة يندر أن يجود بها عالم تخصص فى التصريف والاشتقاق، وقد روى ياقوت قرابة مائة بيت من جيد القول. منها رثاؤه للمتنبى، وقصيدته عن نفسه التى استشهدت ببعضها فيما سلف ومن جيد غزله قوله:

تجبب أو تدرع أو تقبا

فلا واللّه لا أزداد حبا[1]

أخذت ببعض حبك كل قلبى

فان رمت المزيد فهات قلبا

وقوله:

غزال غير وحشى

حكى الوحشى مقلته

(١) تجبب: البس الجبة.

تدرع: البس المدرعة وهو ثوب من الصوف.

تقبى: البس القباب.

رآه الورد يجنى الورد

فاستكساه حلته

وشم بأنفه الريحا

ن فاستهداه زهرته

وزاقت ريحه الصهبا

ء فاختلسته نهكته

فى بلاط سيف الدولة

وهيام ابن جنى بالشعر الجيد قد دفعه إلى مخالطة كبار الشعراء وعقد أواصر المودة معهم ومنهم على عكس ما كان شائعا فى بلاط سيف الدولة بحلب وبلاط عضد الدولة بفارس من كافة النحويين لمعاصريهم من الشعراد وترصدهم ما يقولون بعين النقد الفاحص ارتقابا لزلة لغوية أو هفة نحوية وكأنهم ينفسون عليهم جهارة الصيت بين العامة والخاصة معادونهم اذ ينكمش ذيوعهم العلمى فى نفر من الدارسين، واذا كان أبو الطيب شاعر العربية الأكبر لوقت ابن جنى قد منى بعداوة ابن خالويه وأبى على الفارسى إلى حد أسال دمه بمفتاح ابن خالوية فى مجلس سيف الدولة فان ابن

جنى وحده من كبار العلماء هو الذى اغتفر لأبى الطيب تعاليه الشامخ وتكبره الزاهى فغض طرفاً عن ذلك ليصل الود بينه وبين الشاعر ولم ير أنفة فى أن يحضر مجالسه ليقرأ عليه ديوانه ويناقشه فيما يعن له من الآراء مناقشة تردد صداها فيما كتبه ابن جنى من شرح على الديوان اذ يقول فى بعض ما قال «كنت أقرأ ديوان أبى الطيب عليه فقرأت عليه قوله فى كافور:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت إلى قوله:

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة

فلا أشتكى فيها ولا أتعتب

ولى ما يذود الشعر عنى أقله

ولكن قلبى يا بنة القوم قلب

فقلت له: يعز على كيف يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة.

فقال المتنبى: حذرناه وأنذرناه فما نفع الست القائل فيه:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

وهو الذى أعطانى كافورا بسوء تقديره وقلة تمييزه.

وجواب المتنبى لا يخلو عن تعاظم دفعه إلى سب سيف الدولة على حبه اياه، وهى شنشنة نعرفها لدى من يرفعون أنفسهم على النظراء دون نظر خلقى يعصم من الجموح.

ثقة المتنبى به

وفى ترجمة ياقوت لأبى الفتح أن المتنبى سئل بشيراز عن معنى قوله:

وكان ابنا عدو كاثراه

له يائى حروف أنيسان

فقال: لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرا لعزه، كما قال عن ابن جنى هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس، وقد سئل المتنبى ذات مرة عن قوله:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا

فقيل له: كيف أثبت الألف فى تصبرا مع وجود لم

الجازمة. فقال المتنبى: لو كان أبو الفتح هنا لأجابك، واحالة الاجابة على أبى الفتح أكثر من مرة تدل على اعتقاد حسن فيه من شاعر لا يكاد يعتقد الحسن فى غيره من الناس، وقد جاء فى الجزء الرابع من مسالك الأبصار أن المتنبى كان اذا سئل عن معنى قاله، أو توجيه اعراب حصل فيه اغراب دل على أبى الفتح وقال: عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى فسلوه فانه يقول ما أردت وما لم أرد، وما أظن المتنبى ينبز صاحبه هذا النبز الا أن يكون فى مجال الدعابة، وهى ثقيلة يضيق بها أبو الفتح لو طرقت سمعه، على أن ابن جنى قد بذل الجهد فى الاعتناء بشعر صديقه اذ شرح ديوانه شرحين. شرحا كبيرا، وشرحا صغيرا. ولم يسلم شرحه من انتقاد معاصرية.. وأشدهم قسوة عليه صديقه على بن عيسى الربعى الذى ألمنا ببعض صفاته اذ وضع كتاب سماه التنبيه على خطأ ابن جنى فى تفسير شعر المتنبى. ثم رثاه بقصيدة رائعة تدل على حسرة وتلدد وقد ذكر منها ياقوت أبياتا جيدة ختمها بقوله:

عمرت خدن المساعى غير مضطهد

كالنصل لم يدنس يوما ولم يعب

فاذهب عليك سلام المجد ما قلقت

خوص الركائب بالأكوار والشعب

مع الشريف الرضى

ولم يقتصر احتفاء ابن جنى على أبى الطيب وحده. بل كان يقدر كل نابغ من الشعراء حتى ولو كان من طبقة تلاميذه، اذ كان يعمد لشعر الشريف الرضى وقد أصدر كتابه تفسير العلويات ليشرح أربع قصائد مختارة من شعر الشريف كل واحدة فى مجلد خاص كما قال ياقوت، وقد عد منها ثلاثة فقط هى مراثية الجياد فى ابراهيم بن نصر الدولة. والصاحب بن عباد، وأبى اسحاق الصابى. وكأنه لم يكن يقف على القصيدة الرابعة فأغفلها، واذا كان الوفاء من خلق الشريف الرضى فقد قدر لشيخه احتفاءه الجم بشعره فأكبره حيا ورثاه ميتا بقصيدة من عيون شعره جاء فيها:

لتبك أبا الفتح العيون بدمعها

وألسننا من بعدها بالمناطق

اذا هب من تلك الغليل بدامع

تسرع من هذى الغرام بناطق

شقيقى اذا التاث الشقيق وأعرضت

خلائق قومى جانبا عن خلائقى

وكل ذلك ينبىء عن مشاركة جيدة من أبى الفتح فى الخالص النقى من لباب الشعر بعيدا عن غوامض التصرف ومصاعب الاشتقاق مما سلخ فيه عمره الطويل.

حديثه مع الأعراب

كانت عقلية ابن جنى تغريه بالتتبع والاستقراء ليجىء قياسه سليما مضبوطاً قدر الطاقة. وكأنه لم يكتف بالالمام بكل ما وقع بين يديه من كتب السابقين فرأى أن يشافه من بقى من فصحاء العرب لعهده مشافهة متفرسة توضح غرائب الجموع وتعين على تحديد أصول الكلمات، وقد تعهد ألا يأخذ عن بدوى دون امتحان يكشف معدنه فى الفصاحة، فاذا وجد انحرافا فى حرف واحد أهمله إلى الموثوق بهم من الفصحاء، وأشهر من عرف بالأخذ عنه أبو عبد الله محمد العقيلى، وأبو الوفاء الأعرابى، وله مع الأول طرائف علمية لها دلالتها الواضحة ننقل منها عن ياقوت هذين النصين جـ ١٢ ص ١٠٦ وما بعدها.

١ ـ قال ابن جنى وسألت الشجرى صاحبنا: يا أبا عبدالله كيف تقول: اليوم كان زيد قائما؟ فقال: كذلك قلت فكيف تقول: اليوم ان زيدا قائم. فأباها البته. وذلك أن ما بعد «ان» لا يعمل فيما قبلها لأنها انما تأتى أبدا مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها، وما بعدها عما قبلها، قلت له يوما ولا بن عم له يقال له غصن، وكان أصغر منه سنا وألين لسانا، كيف تحقران حمراء فقالا: حميراء، قلت: فصفراء قالا صفيراء. قلت فسوداء قالا سيوداء. واستمررت بهما فى نحو هذا فلما استويا عليه دسست بين ذلك «علباء» فأسرع ابن عمه على طريقته «عليباء» وكاد الشجرى يقولها معه فلما هم بفتح الباء استرجع مستنكرا فقال:اه عليبى وأشم الفتحة دائما للحركة فى الوقف وتلك عادة.

٢ ـ قال ابن جنى: وسألته كيف تجمع محر نجما وكان غرضى من ذلك أن أعلم ما يقوله أيكسر فيقول حراجم أم يصحح فيقول محرنجمات، فذهب هو مذهبا غير هذين فقال: وأين فرقة حتى أجمعه، وصدق، وذلك أن المحرنجم هو المجتمع يقولها مارا على شكيمته غير محس لما أريده منه. والجماعة

معى على غاية الاستغراب لفصاحته. فقلت له فدع هذا. اذا أنت مررت بابل محرنجمة وأخرى محرنجمة تقول مررت بابل ماذا؟ فقال:

مررت بابل محرنجمات، وأقام على التصحيح البتة استيحاشا من تكسير ذوات الأربعة لمصاحبتها ذوات الخمسة التى لا سبيل إلى تكسيرها ولا سيما اذا كان فيها زيادة، والزيادة قد تعتد فى كثير من المواضع اعتداد الأصول حتى انها لتلزم نحو كوكب وحوشب. وهذا موضع يحتاج إلى اصغاء إليه وارعاء عليه والوقت لتلاحمه وتقارب أجزائه مانع منه ويعين الله فيما يليه على المعتقد المنوى فيه بقدرته. وسألته يوما كيف تجمع سرحانا؟ فقال سراحين، قلت فدكانا قال داكاكين. فقلت فقرطانا قال قراطين. فقلت فعثمان قال عثمانون قلت هلا قلت عثامين كما قلت سراحين وقراطين فأباها البته وقال: ايش ذا؟ أى أى شيء. أرأيت انسانا يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبدا استوحش من تكسير العلم اكثارا له لا سيما وفيه الألف والنون اللتان بابهما فعلان الذى لا يجوز فيه فاعلين نحو سكران وغضبان.

وكتاب الخصائص يحفل بنماذج كثيرة كهذين النموذجين اذ سجل فيه ابن جنى معظم خبراته العلمية

مع البادين من الفصحاء منتسبا إلى أحدث مدارس المعرفة حين فضل الاتصال المباشر كطريق للمعرفة الصحيحة مثله فى ذلك مثل الجاحظ حين رحل إلى البادية يبقر بطون الحيات والعقارب ليقف عن عيان على حقائقها التشريحية، وماالسؤال عن جمع محرنجم وعثمان ودكان الا بعض مشاهد التجربة اللغوية فى أخص بيئاتها الفصيحة، وبذلك امتاز أبو الفتح بدراية واسعة أكملها بألمعية متألقة تضع كل شيء موضع التعليل والتأمل، وهذا ما برع به على قرانائه من تلاميذ أبى على الفارسى فقدمه رؤساء عصره فى حلب وشيراز وبغداد. وبلغ من آل بويه مبلغا عاليا ينبيء عن اجلال مرموق وأحله مؤرخوا العربية بعد رحيله أكرم محل وأعلاه.

ويقول صاحب معجم الأدباء انه من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. صنف فى ذلك كتبا أبر بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن فى شيء من علوم أكمل منه فى التصريف. ولم يتكلم أحد فى التصريف كلاما أدق منه ص ٨٢ جـ ١٨ فان أبا الحسن الباخرزى قد قال عنه ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له ولا سيما فى

علم الاعراب فقد وقع عليها من تمرة الغراب، ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته.

بعض ما قاله المعاصرون عنه

أما الكاتبون في عصرنا الحاضر فقد قدروا للرجل سبقه المحلى فى أكثر من ميدان فقد جمع الدراسات الصوتية التى نشأت ضئيلة عند الخليل وسيبويه حتى أكملها مستوفاة بارزة فى كتاب سر صناعة الاعراب وهو ما حدثنا عنه محققوا سر الصناعة اذ يقولون ص ١٣ جـ ١.

«ومن أحسن ما عرض له العرب فى دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتى وهو الحلق والفم إلى الشفتين وتقسيمه اياه إلى مناطق ومدارج تختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه الخليل أيضا من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج فقد هدى بذكائه المتفوق فى ذلك إلى مقاييس صحيحة أقر كثيرا منها علماء الأصوات المحدثون وكذلك قوله فى الحركات انها أبعاض حروف المد، واختراعه علامات الضبط التى لا نزال نستعملها حتى اليوم من ضمة وفتحة وكسرة وقد نجد هذه المباحث عند ابن جنى فى سر الصناعة موضحة مبينة

بيانا شافيا كما نجد عنه شيئا جديدا لعله اقتبسه من دراسات الفلاسفة للأصوات وهو تشبيه الحلق بالناى (المزمار) وتشبيه مدارج الحروف ومخارجها بفتحات هذا المزمار التى توضع عليها الأصابع وهى لمحة تدل على قوة ملاحظة وصحة فهم».

أما الدكتور أحمد أمين رحمة اللّه فقد أنصف ابن جنى فى أكثر من موضع فى الجزء الثانى من ظهور الاسلام اذ أشار لسبقه إلى تحطيم نظرية العامل فى النحو ونقل قوله ص ١١٧ جـ ٣ فى الخصائص «وأما فى احقيقة ومحصول الحديث فالحركات من الرفع والنصب والجر والجزم انما هى للمتكلم نفسه لا لشىء غيره».

ثم ذكر الدكتور تعليل ابن جنى لذلك بأن لفظة ضرب قد انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن أن تكون عاملاً فى زيد أو عمرو فليس الفعل عاملا فى الفاعل ولا المفعول، وليست «ان» تنصب المبتدأ وترفع الخبر ولا كان ترفع المبتدأ. فهذا كلام لا معنى له، وليس الخبر مرفوعا بالمبتدأ كذلك وهو رأى سبق به ابن جنى وجاء ابن مضاء القرطبى فتوسع فيه توسعا ظهر أثره فى

الدراسات المعاصرة التى دعت إلى تيسير النحو. وابن جنى واضع البذرة دون ليس عند حديثه عن اللغة والأدب بكتاب الخصائص الذى يضع للنحو واللغة أصولا كأصول الفقه معتمدا على ما يسمى بالاشتقاق الكبير مرادا به حصر أصول الكلمة وتقبلها على وجوهها المختلفة واستخراج التباديل والتوافيق منها مع المقارنة بينها فى المعانى وسنخص كتاب الخصائص هنا بايضاح بصير، وكفا أبا الفتح فخرا أن آراءه تقابل بالاستطراف والجدة فى عصرنا الحديث.

مؤلفاته

أكثر أبو الفتح من التأليف فى علوم العربية اكثارا يدل على أنه شغل وقته جميعه فيما يفيده لا سيما أن أن الطابع العام لمؤلفاته طابع دارسة وتحقيق لا جمع وتبويب. ومثل هذا الطابع يتطلب فسحة كبيرة من الوقت فى العلاج الدائب للتويات المباحث ومتشعبات المعانى ثم للصياغة الحرة الناصعة ذات الرصانة العلمية الفاقهة، وقد سجل أستاذنا البحاثة المغفور له الشيخ محمد على النجار فهرس مؤلفاته فى مقدمة الجزد الأول من الخصائص ما بين ص ٦٠، ٦٨ فى طبعته الثانية عن دار الكتب المصرية فأعض الباحثين بعده من

تتبع هذه المؤلفات. اذ وفق توفيقا كبيرا فى استيعابها عن تنقيب لا يتاح إلا لمن برع براعته فى البحث الصابر والنظر الطويل. حتى أن محققى كتاب «سر الصناعة» وهم من كبار الباحثين فى «مصر» قد اكتفوا باستيعاب الأستاذ النجار ورأوا ألا مزيد وراءه لباحث فأحالوا عليه مقدرين. وها هى ذى مؤلفات أبى الفتح:

١ ـ الخصائص. وسيأتى الحديث عنه ببعض التفصيل.

٢ ـ التمام فى تفسير ما أغفله السكرى من أشعار الهذليين.

٣ ـ سر الصناعة فى ثلاثة أجزاء وقد بدأت فى نشره مكتبة الحلبى سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا وزملائه. أما نسخه الخطية فكثيرة.

٤ ـ تفسير تصريف المازنى وهو شرح لتصريف المازنى أسماه المنصف.

٥ ـ شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها.

٦ ـ شرح المقصور والممدود لا بن السكيت.

٧ ـ تعاقب العربية فى الأشباه والنظائر النحوية ذكره السيوطى.

٨ ـ تفسير ديوان المتنبى الكبير ويسمى المفسر.

٩ـ تفسير معانى ديوان المتنبى وهو الشرح الصغير.

١٠ ـ اللمع فى العربية جمعه من كلام شيخه أبى على الفارسى.

١١ ـ مختصر التصريف طبع بشرح ابن يعيش.

١٢ ـ مختصر العروض والقوافى. يوجد فى مكتبة برلين.

١٣ ـ كتاب الألفاظ المهموزة. ذكر بركلمان أنه طبع مع المقتضب.

١٤ ـ المقتضب فى اسم المفعول المعتل العين من الثلاثى. طبع فى ليبزج والقاهرة.

١٥ ـ تفسير المؤنث والمذكر ليعقوب.

١٦ ـ تأييد تذكرة أبى على.

١٧ ـ المحاسن فى العربية ذكره صاحب كشف

الظنون.

١٨ ـ النوادر الممتعة ورد ذكره فى الخصائص.

١٩ ـ الخاطريات يقول انه مما أحضرنيه من المسائل المنثورة.

٢٠ ـ المحتسب فى شرح شواذ القراءات يوجد مخطوطا منه.

٢١ ـ تفسير أرجوزه أبى نواس.

٢٢ ـ تفسير العلويات (قصائد الشريف الأربع وقد أشرت إليها).

٢٣ ـ كتاب البشرى والظفر فى تفسير بيت شعرى لمناسبة سياسية.

٢٤ ـ رسالة فى مد الأصوات ومقادير المدات.

٢٥ ـ كتاب المذكر والمؤنث.

٢٦ ـ كتاب النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته.

٢٧ ـ المعرب فى شرح القوافى.

٢٨ ـ الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام.

٢٩ ـ كتاب الوقف والابتداء.

٣٠ ـ كتاب المعانى المجردة.

٣١ ـ كتاب الفرق.

٣٢ ـ كتاب الفائق.

٣٣ ـ كتاب الخطيب.

٣٤ ـ كتاب الأرجيز.

٣٥ ـ كتاب ذى القد.

٣٦ ـ شرح الفصيح لثعلب.

٣٧ ـ شرح الكافى فى القوافى.

٣٨ ـ التلقين فى النحو.

٣٩ ـ التذكرة الاصبهانية.

٤٠ ـ التهذيب تهذيب التذكرة لأبى على.

٤١ ـ المهذب.

٤٢ ـ التبصرة.

٤٣ ـ كتاب الزجر.

٤٤ ـ مسألتان من كتاب الايمان.

٤٥ ـ علل التثنية.

٤٦ ـ المسائل الواسطية.

٤٧ ـ شرح الابدال ليعقوب.

هذا ثبت مؤلفاته كما رواه الأستاذ النجار مع حذف كتابين تكرر ذكرهما فى غير ضرورة. وهو ثبت يدل على تشعب ثقافة وافية عميقة متسعة.

كتاب الخصائص

واذا كان من هدفنا اليوم أن نتحدث عن كتاب الخصائص فلأنه من أوسع كتبه بسطا لمذهبه فى الاشتقاق الكبير وما ينحو نحوه من مباحث القياس ذاكرا فى مقدمته أن أبا الحسن سعيد بن مسعده الشهير بالأخفش الأوسط قد صنف فى شىء من المقاييس كتيبا صغيرا سبق به «اذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذلك أننا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا» واذا كان مؤلف الأخفش كتيبا صغيرا وكان الخصائص على ما نرى من السعة والبسط والشمول. فان المقارنة بينهما على فرض وجود نسخة من كتاب الأخفش مما تحفظ لابن

جنى جهده الجاهد فى ابتكار الكثير من مسائل الخصائص ويالها من مسائل.

عرض تحليلى

بدأ ابن جنى حديثه فى الخصائص عن الاشتقاق الأكبر فأوضح فائدة تقليب الحروف للمادة الواحدة مبينا كيف تدور فى شتى تراكيبها على مدلول قريب متشابه وأيد القول بالمثال الشاهد متنقلا إلى الحديث عن اللغة والنحو والاعراب والبناء، ومفيضا فى القول عن أصل اللغة الهام هى أم اصطلاح مبينا رأيه فى علل العربية: أهى من العلل الكلامية أم من العلل الفقهية؟ ذاكرا أن الحكمة تخفى فى كثير من الأحكام الشرعية دون الكلامية وقد نص على أن اهمال ما أهمل فى العربية يرجع أكثره إلى الاستثقال. وقد استعان فى باب الاشتقاق الكبير بما نص عليه من أن أسباب التسمية اللغوية قد تخفى لبعدها فى الزمان احتجاجا بقول سيبويه «ولعل الأول وصل إليه علم ما لم يصل إلى الآخر» وضرب المثل لذلك ص ٦٦ بقولهم للانسان اذا رفع صوته رفع عقيرته «فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت ومعنى عقر لبعد عنك وتعسفت» وكأنه وجد القول فى حاجة إلى تكرار فأعاده

ص ٢٤٨ مستشهدا مؤيداً، وهذا الفصل المقصور على ذكر علل العربية أحفل ما بالخصائص شاهدا واستنباطا، فاذا أضيف إلى الباب الأول فى الكتاب أعطى الصورة التامة لما يريده ابن جنى وأبو على من الاشتقاق الكبير.

ثم تابع القول عن الاطراد والشذوذ معتمدا على توجيه الأمثلة الشاذة نحوا وتصريفا بما لم يسبق فى أكثره ثم متعرضا إلى نقاط لا تزال حتى عصرنا الراهن موضع الجذب والدفع بين علماء اللغة دون أن يميل بها الزمن إلى استقرار مطمئن وذلك مثل جواز القياس حتى اذا وافى ذلك حقه رجع إلى التفرقة بين علل المتكلمين والنجاة فضرب أمثلة كثيرة للاعلال والابدال مفرقا بين العلة الموجبة والعلة المجوزة، والحق أن حديثه عن العلل الصرفية ينهض علما قائما بذاته يطلق عليه «علم أصول التصريف» كما أطلق «علم أصول الفقه» على أوجه النظر الفقهية فى التشريع ولك أن تقرأ ما خطه فى هذا السبيل مثل كلامه عن تعارض العلل وعن علة العلة وعن حكم المعلول بعلتين وعن ادراج العلة واختصارها ثم عن اجماع العربية ومتى يكون حجة مخالفا الاجماع فى «جر المجاورة» وملتمسا وجها آخر

لتصويب المثل المضروب فى ذلك ومازجا أدلة الأصوليين من الفقهاء بما يراه من الأدلة فيما يضع من أصول التصريف ومتعرضا إلى ماهو فى رأى غيره أقرب إلى مباحث النقد والبلاغة منه إلى مباحث اللغة والتصريف مثل ما أفاض فيه من الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ واغفال المعانى وهو رد سبق ابن جنى ببعضه. الا أن صياغته الأدبية قد كسته جدة قوية يعرفها قراء أبى الفتح وهكذا يتنقل المؤلف فى أحكام أصول التصريف متعرضا إلى غوامض الاعلال حتى اذا قضى حاجته منه رجع إلى النحو فبحث فى عكس التقدير وفى الفرق بين تقدير الاعراب وتفسير المعنى، وفى نقض المراتب اذا عرض هناك عارض ثم فى غلبة الاصول على الفروع وفى ضرورات الشعر وتدريج اللغة وتداخل اللغات مرفها عن القارىء ببعض طرائف الاعراب ومناقشات الزملاء والأساتذة ونوادر الشعراء والمتأدبين مما يزيل طابع الجفاف فى مباحث غامضة لا تمت إلى الرقة ببعض الأسباب.

وقد افتتح الجزء الثانى بمباحث أصيلة فى فقه اللغة فتحدث عن ترك الأخذ عن أهل المدن كما أخذ عن أهل الوبر وعن اختلاف اللغات مع حجتها ثم عن العربى

الفصيح اذا انتقل لسانه واذا سمع لغة غير أيراعيها أم يطرحها وعن الشىء يسمع من الفصيح ولا يسمع من غير مشققا الكلام فى أمور كان يظن أنها لا تحتمل التشقيق مثل ما سطره فى وضع اللغة كاملة أم متلاحقة حتى اذا وضح وجهة نظره مستوفاة بالدليل والمثال تحدث عن تداخل الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية وعن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه وعن اتفاق اللفظين واختلاف المعنين فى الحروف والحركات والسكون عائدا بالكلام إلى الاشتقاق الأكبر وهو ما أفاض فى تحليله من قبل متلفتا إلى ما لا يلتفت إليه العامة من علماء العربية بل ما يتجه إليه خاصتهم مثل ما ذكره فى أبواب خلع الأدلة ونقض العادة وتدافع الظاهر، وفى رأيى أن الباب الذى عقده عن التطوع بما لا يلزم كان موجه أبى العلاء المعرى نحو ما سلكه فى نظم اللزوميات اذ عرض أبو الفتح من أمثلة السابقين ما حفز المعرى إلى الاقتداء بهم عن عمد وكنا قبل قراءة هذا الباب نرى أبا العلاء قد ابتكر هذا الضرب من النظم ابتكارا فرأينا بعد قراءة ما سطره ابن جنى أنه متبع لا مبتدع. ولا ينكر أحد ذيوع الخصائص فى زمن أبى العلاء وهو منه قريب قريب.

ولا يمكننا الآن أن نسرد جميع أبواب الكتاب بأجزائه الثلاثة الا أننا نوجه النظر إلى بعض الفصول الهامة مثل لحوق المجاز بالحقيقة واقرار الألفاظ على أوضاعها الأول وايراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد، وما يحكم به القياس مما لا يسوغ به النطق واضافة الاسم إلى المسمى واختصاص الأعلام بما لا يكون مثله في الأجناس وتسمية الفعل واجراء المتصل مجرى المنفصل وبالعكس وانابة الحرف عن الحركة والحركة عن الحرف والاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب وهو من صميم الأبحاث البلاغية التي تطرق ابن جني إلى كثير منها دون أن يراعى له مؤرخوا البلاغة مكانة بين علمائها وكأن ما برع فيه من التصريف قد ضاءل لديهم ما أسهم به في تحليل التراكيب ونقد أساليب وارساء بعض قواعد البيان، ومن أطرف ما تعرض له أبو الفتح في الجزء الثالث ما ذكره عن سقطات العلماء حيث كشف الكثير من كبوات الأصمعي والفراء وأبي عبيدة وثعلب والكسائي وغيرهم من أئمة العربية، وهو فصل جيد مختار يدل على بصر ثاقب ونفاذ لماح وهكذا تجرى فصول الخصائص مجرى مختلف الشعاب متنوع الأفانين بحيث لا يصبر عليه

غير المهرة من ذوى التحصيل المتصل والعلاج الدءوب هذه نبذة مقتضبة تشير إلى كتاب الخصائص وهو فتح جديد في العربية حيث خاض أبو الفتح مخاضا عز على الكثيرين من مناظريه وشقق الكلام في أصول الاشتقاق تشقيقا بدأ به مهما قيل انه اقتبسه من مجالس أبي علي أو أنه تابع السراج أو الأخفش، لأن امتداد نفسه وجهامة صوته وحسن استدلاله مما يوحى بأنه يمتح من ذهنه وينزع عن قوسه في أكثر ما يقول.

مكانة كتاب الخصائص وأثره في علوم اللغة

وقد قال الأستاذ النجار ما نصه ص ٢٩ من المقدمة.

«لقد فتح ابن جني في العربية أبوابا لم يتسن فتحها لسواه ووضع أصولا في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني واهمال ما أهمل من الألفاظ وغير ذلك. وكان في ذلك اماما. يحتاج إلى أتباع يمضون في سبيله ويبنون على بحوثه واذن لنضجت أصوله وبلغت اناها ولكنه لم يرزق هؤلاء الأتباع».

ولعل مما عاق نمو ما اتجه إليه الخصائص من بحوث أن لاحقيه لم يرزقوا طريقته في التعليل ولم يؤتوا بيانه في التدليل اذ أن لغة أبي الفتح كانت تمثل أرقى

مستويات الأساليب البيانية مهما تحدثت عن مسائل ذات جفاف فى دنيا التصريف والاشتقاق، وأكثر من وليه من المؤلفين كان يتجه اتجاها علميا خالصا لا يتسع للاشباع والافاضة. ولو سار التأليف العلمى نحوا وصرفا مسار الخصائص لتفجرت عيون كثيرة من ينابيع العلم، ولما تورط الكاتبون فى التزام صيغ معينة أخذت تتخاذل وتنكمش حتى أصبحت كالمعميات، وحتى احتاجت إلى حواش وتقريرات، ولكن ابن جنى كان نسيجا وحده فى تأليفه العلمى. ومالدينا من تأليفه الأدبى الخالص كخطبة النكاح التى رواها ياقوت ينبىء أن الرجل ذو أسلوب أدبى لا يقل عن بلغاء عصره من توفروا على الأدب والإنشاء.

وقد نهل من الخصائص كثير ممن تتابعوا بعده علما وطريقة، وبعضهم كان كثير السطو على ألفاظه قبل معانيه كعلى بن أحمد الشهر بابن سيده صاحب المخصص والمحكم. اذ نقل الكثير من عباراته دون عزو، وقد تتبع محقق الخصائص طرفا من هذا السطو ودل عليها فى براعة واقناع.

ولا يزال كتاب الخصائص متطلبا من يتصدى له دارسا مستهديا مستلهما مؤصلا لقواعد علم اللغة

العربية التى نزل بها القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

النص الأول

هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول ولنقدم أمام القول على فرق بينهما طرفا من ذكر أحوال تصريفهما واشتقاقهما، مع تقلب حروفهما، فان هذا موضع يتجاوز بقدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه وستراه فتجده طريقا غريبا، ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا.

فأقول: ان معنى «ق و ل» أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شىء منها وهى «ق و ل»، «ق ل و»، «و ق ل»، «و ل ق»، «ل ق و»، «ل و ق».

الأصل الأول «ق و ل» وهو القول وذلك أن الفم واللسان يخفان له، ويقلقان ويمذلان به[1] وهو بضد السكوت الذى هو داعية إلى السكون، ألا ترى أن

(١) من قولهم مذل المريض من باب فرح، اذا لم يتقار من الضجر، ويقال أيضا مذل: قلق.

الابتداء لما كان أخذا فى القول، لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء أخذا فى السكوت، لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكناً، الأصل الثانى: «ق ل و» منه القلو: حمار الوحش وذلك لخفته واسراعه، قال العجاج:

نواضخ التقريب قلوا مفلجا

ومنه قولهم «قلوت البسر والسويق، فهما مقلوان» وذلك لأن الشىء اذا قلى جف وخف، وكان أسرع إلى الحركة وألطف، ومنه قولهم «اقلوليت يا رجل» قال:

قد عجبت منى ومن يعيليا

لما رأتنى خلفا مقلوليا

أى خفيفا للكبر (و) طائشا، (و) قال:

وسرب كعين الرمل عوج إلى الصبا

رواعف بالحادى حور المدامع

سمعن غناء بعد ما نمن نومة

من الليل فاقلولين فوق المضاجع

أى خفض لذكره وقلقن فزال عنهن نومهن

واستثقالهن على الأرض. وبهذا يعلم أن لام اقلوليت واو، لا ياء. فأما لام اذلوايت فمشكوك فيها.

ومن هذا الأصل أيضا قوله:

أقب كمقلاء الوليد خميص

فهو مفعال من قلوت بالقُلة، ومذكرها القال، قال الراجز:

وأنا فى الضراب قيلان القله

فكأن القال مقلوب قلوت، وياء القيلان مقلوبة عن واو، وهى لام قلوت، ومثال الكلمة قلعان. ونحوها عندى فى القلب قولهم «باز» ومثاله قلع، واللام منه واو، لقولهم فى تكسيره: ثلاثة أبواز، ومثالها أقلاع. ويدل على صحة ما ذهبا إليه: من قلب هذه الكلمة قولهم فيها «البازى» وقالوا فى تكسيرها «بزاة» و «وبواز»، أنشدنا أبو على لذى الرمة:

كأن على أنيابها كل سدفة

صياح البوازى من صريف اللوائك

وقال جرير:

اذا اجتمعوا على «فخل» عنهم

وعن باز يصك حبباريات

فهذا فاعل؛ لا طراد الامالة فى ألفة، وهى فى فاعل أكثر منها فى نحو مال وباب.

النص الثانى

حجة من قال ان اللغة لا تكون وحيا.

ثم لنعد فلنقل فى الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحيا. وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الانابة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد (منها) سمة ولفظا، اذا ذكر عرف به ما سماه، ليمتاز من غيره، وليغنى بذكره عن احضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأحف وأسهل من تكلف احضاره، لبلوغ الغرض فى ابانة حاله، بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لايمكن احضاره ولا ادناؤه كالفانى، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد، كيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والبعد مجراه» فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم، فأومئوا إليه، وقالوا: انسان انسان انسان، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد

به هذا الضرب من المخلوق، وان أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معنيها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء، والأفعال، والحروف، ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فنقول: الذى اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذى اسمه رأس فليجعل مكانه سر، وعلى هذا بقية الكلام. وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها، لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة: من الرومية والزنجية، وغيرهما. وعلى هذا ما تشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار، والصائغ، والحائك، والبناء، وكذلك الملاح. فقالوا: ولكن لا بد لأولها من أن يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء، قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحدا من عباده على شىء، اذ قد ثبت أن المواضعة لا بد معها من ايماء واشارة بالجارحة نحو المومأ إليه، والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جارحة له، فيصح الايماءة والاشارة بها منه؛ فبطل عندهم أن تصح المواضعة على اللغة منه، تقدست أسماؤه، قالوا: ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التى قد وقع التواضع بين عباده عليها بأن عليها بن يقول: الذى

كنتم تعبرون عنه بكذا عبروا عنه بكذا، والذى «كنتم تسمونه» كذا ينبغى أن تسموه كذا، وجواز هذا منه ـ سبحانه ـ كجوازه من عباده، ومن هذا الذى فى الأصوات ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال، فى حروف المعجم، كالصورة التى توضع للمعميات، والتراجم؛ وعلى ذلك أيضا اختلفت أقلام ذوى اللغات؛ كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم فى المواضعات. وهذا قول من الظهور على ما تراه. الا أننى سألت يوما بعض أهله، فقلت: ما تنكر أن نصح المواضعة من اللّه تعالى؟ وان لم يكن ذا جارحة، بأن يحدث فى جسم من الأجسام خشبة أو غيرها، اقبالا على شخص من الأشخاص، وتحريكا لها نحوه، ويسمع فى نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتا يضعه اسما له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعات، مع أنه ـ عزا اسمه ـ قادر على أن يقنع فى تعريفه ذلك بالمرة الواحدة، فتقوم الخشبة فى هذا الايماء، وهذه الاشارة، مقام جارحة ابن آدم فى الاشارة بها فى المواضعة؛ وكما أن الانسان أيضا قد يجوز اذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه، فيقيمها فى ذلك مقام يده، لو أراد الايماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف

بوجوبه، ولم يخرج من جهته شىء أصلا فأحكيه عنه، وهو عندى وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعه القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لسانا إلى لسان. فاعرف ذلك. وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات، كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبى ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندى وجه صالح، ومذهب متقبل.

النص لثالث

(هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولا؟)

سألت أبا على رحمه اللّه عن هذا فقال: كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم، فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا، وما حظرته عليهم حظرته علينا.

واذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم، فليكن من أحسن ضروراتنا، وما كان من أقبحها عندهم فليكن من أقبحها عندنا، وما بين ذلك بين ذلك فان قيل:

هلا لم يجز لنا متابعتهم على الضرورة، من حيث كان القوم لا يترسلون فى عمل أشعارهم ترسل المولدين، ولا يتأنون فيه، ولا يتلومون على حوكه (وعمله) واذا كان أكثره ارتجالا، قصيدا كان، أو رجزا، أو رملا. فضرورتهم اذن أقوى من ضرورة المحدثين. فعلى هذا ينبغى أن يكون عذرهم فيه أوسع، وعذر المولدين أضيق. قيل: يسقط هذا من أوجه: أحدها أنه ليس جميع الشعر القديم مرتجلا، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه، والملاطفة له، والتلوم على رياضته، واحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولدين. ألا ترى إلى ما يروى عن زهير: من أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين، فكانت تسمى حوليات زهير، لأنه كان يحوك القصيدة فى سنة. والحكاية فى ذلك عن ابن أبى حفصة أنه قال:كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشهر، وأحككها فى أربعة أشهر، وأعرضها فى أربعة أشهر، ثم أخرج بها إلى الناس. فقيل له: فهذا هو الحولى المنفح. وكذلك عن ذى الرمة: أنه قال: لما قال:

بيضاء فى نعج صفراء فى برج

أجبل حولا لا يدرى ما يقول، إلى أن قرت به صينية فضة (قد) أشربت ذهبا فقال:

كأنها فضة قد مسها ذهب

وقد وردت أيضا بذلك أشعارهم، قال ذو الرمة:

أجنبه المساند والمحالا

ألا تراه كيف اعترف بتأنيه فيه وصنعته اياه، وقال عدى بن الرقاع العاملى:

وقصيدة قد بت أجمع بينها
حتى يقيم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قنانه
حتى يقيم ثقافة منآدها

وقال سوُيد بن كُراع:

أبيت بأبواب القوافى كأنما
أود بها سربا من الوحش نزعا

وانما يبيت عليها لخلوه بها، ومراجعته النظر فيها. وقال:

أعددت للحرب الذى أعنى بها
قوافيا لم أعن باجتلابها
حتى اذا أذللت من صابعها

واستوسقت لى صحت فى أعقابها

فهذا ـ كما ترى ـ مزاولة ومطالبة واغتصاب لها ومعاناة كلفة بها. ومن ذلك الحكاية عن الكميت وقد افتتح قصيدته التى أولها:

ألا حييت عنا يا مدينا.

ثم أقام برهة لا يدرى بماذا يعجز على هذا الصدر، إلى أن دخل حماماً وسمع انسانا دخله، فسلم على أخر فيه، فأنكر ذلك عليه، فانتصر بعض الحاضرين له فقال: وهل بأس بقول المسلمين، فاهتبلها الكميت.

فقال: وهل بأس يقول سلمينا.

ومثل هذا فى أشعارهم الدالة على الاهتمام بها، والتعب فى احكامها كثير معروف. فهذا وجه.

النص الرابع

باب فى تركيب المذاهب

قد كنا أفرطنا فى هذا الكتاب باب تركيب اللغات. وهذا الباب نذكر فيه كيف تتركب المذاهب اذا ضممت بعضها إلى بعض «وانتجت» بين ذلك مذهبا. وذلك أن أبا عثمان كان يعتقد مذهب يونس فى رد المحذوف فى

التحقير وان غنى المثال عنه. فيقول فى تحقير هار: هوينر، وفى يضع اسم رجل: يويضع، وفى بالة من قولك ما باليت به بالة: بويلية، وسيبويه اذا استوفى التحقير لم يردد ما كان قبل ذلك محذوفا. فيقول: هو ير، ويضيع، وبويلة. وكان أبو عثمان أيضا يرى رأى سيبويه فى صرف نحو جوار علما واجرائه بعد العلمية على ما كان عليه قبلها. فيقول فى رجل او امرأة اسمها جوار أو غواش بالصرف فى الرفع والجر على حاله قبل نقله، ويونس لا يصرف ذلك ونحوه علما، ويجريه مجرى الصحيح فى ترك الصرف.

فقد تحصل اذن لأبى عثمان هنا مذهب مركب من مذهبى الرجلين، وهو الصرف على مذهب سيبويه، والرد على مذهب يونس. فنقول على قول أبى عثمان فى تحقير اسم رجل سميته بيرى: هذا يرىء «كيربع» فترد الهمزة على قول يونس، وتصرف على قول سيبويه. ويونس يقول فى هذا: يرينئ (بوزن يريعى) فلا يصرف. وقياس قول سيبويه يُرى، فلا يرد، واذا لم يرد لم يقع الطرف بعد كسرة، فلا يصرف اذن، كما لم يصرف أحى تصغير أحوى. وقياس قول عيسى أن يصرف فيقول: يُرى كما يصرف تحقير أحوى: أحىٌ.

فقد عرفت اذن تركب مذهب أبى عثمان من قولى الرجلين.

النص الخامس

(باب فى صدق النقلة، وثقة الرواة والحملة)

هذا موضع من هذا الأمر، لا يعرف صحته الا من تصور أحوال السلف فيه تصورهم، ورآهم من الوفور والجلالة بأعيانهم، واعتقد فى هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له، وعلم أنه لم يوفق لا ختراعه، وابتداء قوانينه وأوضاعه، الا البر عند الله سبحانه، الحظيظ بما نوه به، وأعلى شأنه، أو لا يعلم أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه هو البادئه، والمنبه عليه، والمنشئه والمرشد اليه.

ثم تحقق ابن عباس رضى الله عنه، واكتفال أبى الأسود - رحمه الله - اياه، هذا بعد تنبيه رسول الله ﷺ عليه، وحضه على الأخذ بالحظ منه، ثم تتالى السلف - رحمهم الله - عليه، واقتفائهم - آخرا على أول - طريقه، ويكفى من بعد ما تعرف حاله، ويتشاهد به من عفة أبى عمرو بن العلاء ومن كان معه، ومجاورا زمانه، حدثنا بعض أصحابنا - يرفعه - قال: قال أبو عمرو بن العلاء - رحمه الله -: مازدت فى شعر العرب الا بيتا واحدا

يعنى ما يرويه للأعشى من قوله:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت

من الحوادث الا الشيب والصلعا

أفلا ترى إلى هذا البدر الطالع الباهر، والبحر الزاخر، الذى هو أبو العلماء وكهفهم، وبدء الرواة وسيفهم، كيف تخلصه من تبعات هذا العلم وتحرجه، وتراجعه فيه إلى الله وتحوبه، حتى انه لما زاد فيه - على سعته وانبثاقه، وترامية وانتشاره - بيتا واحدا، وفقه الله للاعتراف به، (وجعل ذلك) عنوانا على توفيق ذويه وأهليه، وهذا الأصمعى - وهو صناجة الرواة والنقلة واليه محط الأعباء والثقلة، ومنه تجنى الفقر والملح، وهو ريحانة كل مغتبق ومصطبح - كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره - وهو حدث - لأخذ قراءة نافع عنه. ومعلوم (كم قدر ما) حذف من اللغة، فلم يثبته، لأنه لم يقو عنده، اذ لم يسمعه، وقد ذكرنا فى الباب الذى هذا بليه طرفا منه.

فأما اسفاف من لا علم له، وقول من لا مسكة به: ان الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب، ويفعل كذا، ويقول كذا، فكلام معفو عنه، غير معبوء به، ولا منقوم من مثله،

حتى كأنه لم يتأدَّ اليه توقفه عن تفسير القرآن وحديث رسول اللّه ﷺ وتحوبه من الكلام فى الأنواء.

ويكفيك من ذا خشنة أبى زيد وأبى عبيدة. وهذا أبو حاتم بالأمس، وما كان عليه من الجد والانهماك، والعصمة والاستمساك.

وقال لنا أبو على ـ رحمه الله ـ يكاد يعرف صدق أبى الحسن ضرورة وذلك أنه كان مع الخليل فى بلد واحد فلم يحك عنه حرفا واحدا. هذا إلى ما يعرف من عقل الكسائى وعفته ونزاهته حتى ان الرشيد كان يجلسه ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته، ويأمرهما الا ينزعجا لنهضته.

وحكى أبو الفضل الرياشى قال جئت أبا زياد لأقرأ عليه كتابه فى النبات فقال لا تقرأ على، فأنى قد أنسيته. وظل كتاب الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى. منهل اللغويين وعمدة الباحثين. ومرجع المتخصصين فى لغة القرآن العربى المبين ـ ويدرس الكتاب فى الكليات اللغوية ـ كلية اللغة العربية بالأزهر ـ وكلية دار العلوم جامعة القاهرة كمرجع اساسى للغة وأسرارها.

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٢٣٤

I.S.B.N 977-01-3951-3

NYROUF

الخصائص

لأبى الفتح عثمان بن جنى

NYROUF

د. الحسينى عبدالمجيد هاشم

NYROUF

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

الخصائص

لأبى الفتح عثمان بن جنى

د/الحسينى عبد المجيد هاشم

مقدمة

كان القرن الرابع الهجرى أخصب قرون العربية انتاجا وتاليفا وابتكارا، لأن أئمة الدارسين للغة والنحو والأدب قد ورثوا ثقافة القرون السابقة بعد أن ترجم إلى العربية أثمن ما لدى اليونان والفرس والهند من ثقافات وبعد أن جمع ما أمكن جمعه من مواد اللغة والأدب واتسع التأليف فى مسائل النحو والصرف اتساعا يميل إلى التبويب والتعليل والتدعيم بالشاهد والبرهان مما أدى إلى ظهور طبقة من الأعلام الثقات كانوا نجوم هذا العصر وكواكبه.، وسنقتصر الآن على الحديث عن كوكب متألق هو صاحب الخصائص أبو الفتح عثمان بن جنى. تجمع كتب التاريخ على أنه ولد بالموصل على اختلاف فى عام ميلاده.

حياة المؤلف

وقد سجل المؤرخون وفاة ابن جنى سنة ٣٩٢ هـ فى خلافة القادر بعد أن عمر نحوا من السبعين فيكون مولده اذن قبل سنة ٣٣٠هـ كما استظهر ياقوت. وقد انفرد أبو الفداء بتحديد سنة ٣٠٢ لمولده فيكون على ذلك قد بلغ التسعين: ثم جاء بروكلمان فأضاف عامين آخرين إلى حياته اذ جعل ميلاده فى سنة ٣٠٠ هـ وهو غير الراجح بالتأكيد.

وكان والده جنى روميا يونانيا مملوكا لسليمان بن مهند بن أحمد الأزدى. لذلك ينسب أبو الفتح عثمان بن جنى إلى الأزد ولاء فيقول عن نفسه فى أكثر مؤلفاته «قال أبو الفتح عثمان بن جنى الأزدى» وقد نشأ فى عصر يرى فى أولاد الموالى بعض الضعة عن عنجهية آثمة لا تغترف من معين الاسلام فى شىء، وقد أحس ابن جنى غضاضة لاذعة يوقدها مفهوم العامة الخاطىء فى براءة الأنساب وخلوص الأعراق فاضطر الى أن يعوض ما فاته لدى الناس بالتحصيل والجد، فدأب دأبا بارزا على الكفاح العلمى فى أشرف ميادينه حتى أصبح ذات يوم امام العربية فى الناس وكأن شعوره

القديم بضآلة نسبه قد انقلب إلى تيه بصير مطمئن حين انتهى به إلى امامة القوم فى حلقات العلم واللغة. وانه ليقول فى بعض ذلك عن نفسه من قصيدة طويلة رواها ياقوت جـ ١٢ ص ٩٧.

أخى فخر معا خره
عقائل عقله الأدب
بيت بفاتن الأنقا
ب عن أسرارها الغيب
فمن جدد إلى جلد
إلى صعد إلى صبب
ويقرع فكره الأبكا
ر منها من حمى الحجب
فيبردها وكان بها
وان خفيت سنا لهب
بساطة مذهب سبكت
عليه ماءة الذهب

وطى للفروع على

أصول وطد رتب

اذا ما انحط غائرها

سما فرعا على الرتب

إلى أن قال:

فان أصبح بلا نسب

فعلمى فى الورى نسبي

على أنى أقول إلي

قروم سادة نجب

قياصرة اذا نطقوا

أرم الدهر ذو الخطب

أولاك دعا النبى لهم

كفى شرفا دعاء نبي

وقد فهم بعض المتسرعين من فخره برومية ما يشى ببعض الشعوبية لديه وهو فهم متسرع لا يصدر عن اطمئنان متأن. اذ أن كتب الرجل تنفح عن العرب

وتدافع عنهم بما يدافع به أعرق المنتسبين إلى العروبة حسبا وأصالة، وله فى وصف البداة عبارات جزلة تدل على اعجاب فائق وتقدير متأصل. وفرق بعيد بينه وبين أبى نواس وبشار وأضرابهما ممن يفتخرون بعجميتهم عن تيه صلف واعتزاز يحقر كل ما يمت إلى العروبة بسبب. وقصارى أمر ابن جنى حين قال:

على أنى أقول إلى

قروم سادة نجب

أنه ينبيء عن أن الروم كانوا سادة ذوى شرف كسؤدد العرب وشرفهم فهو لا يزيد فى ذلك عن قول مهيار:

فجمعت المجد من أطرافه

سؤدد الفرس ودين العرب

ولكن الذين يتلمسون مواضع النقص تلمسا يغفلون عن حقائق الدوافع النفسية حين يتعجلون بالصاق الشعوبية بأمثال ابن جنى المترصنين ذوى الوقار والاتزان، ولو قرءوا القصيدة جميعها لعلموا أن الفخر بالروم نطق به الشاعر جبرا لخلل يحسه لا زراية بقوم يتفيأ ظلال لغتهم ويتصدر رياسة فضلائهم فى البحث

والتأليف ويقول فى صراحة سافرة ان علمه بالعربية هو نسبه الأصيل.

أساتذته

وقد أخذ اللغة والأدب والنحو والتصريف عن كبار الأعلام فى عصره من أمثال أحمد بن محمد الموصلى وأبى بكر محمد بن الحسن راوية ثعلب وأبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى، الا أن انتفاعه بأبى على الفارسى كان أعمم وأشمل فقد صحبه قرابة أربعين عاما صحبة مدراسة ومناقلة حتى كان منه بمنزلة سيبويه من الخليل، وكان ابن جنى يباهى به ويدون آراءه فى اعتزاز ولا تمنعه أستاذية أبى على من مخالفته فى بعض ما يرى فيه وجها للمخالفة، كما يتجلى واضحا فى تأليفه. وقد ذكروا أن ابن جنى قد تصدر للتدريس فى سن مبكرة، اذ جلس لقراءة النحو بالمسجد الجامع بالموصل فاجتاز به أبو على الفارسى وقد تجمع الناس من حوله فسأله عن مسألة من مسائل التصريف فقصر فيها فقال له أبو على: لقد زببت وأنت حصرم. يريد أنه تصدر للتدريس قبل الأوان. فانقطع أبو الفتح وسأل عنه فقيل هذا أبو على الفارسى امام

العربية فى عصره فلزمه من يومئذ، وقد عنى بالتصريف عناية تامة فما أحد أعلم به منه ولا أقوم بأصوله وفروعه فى تأليفه منذ عكف على مدارسته ونخله، وظاهر هذه الرواية التى نقلها ياقوت أن أبا الفتح لم يكن رأى أبا على قبل أن يجلس مجلسه بمسجد الموصل، ولكن ابن خلكان يروى غير ذلك. اذ يذكر أنه قرأ الأدب على أبى على ثم فارقه دفعة للاقراء بالموصل فاجتاز به شيخه فرآه فى حلقته والناس من حوله يشتغلون عنه فقال له: تزببت وأنت حصرم فترك حلقته وتبعه ولازمه حتى تمهر، فرواية الوفيات تنص على أن أبا الفتح قد درس على أبى على منذ صغره، وهى أقرب إلى الصواب. اذ لا يعقل أن يمر أبو على الفارسى بمسجد الموصل وفيه جلة الدارسين ثم لا يعرفه أحد حين يجلس مجلسه من أبى الفتح، مع أن مثله من الجهارة والذيوع بحيث يقوم له علماء المسجد فور وصوله يأخذون عنه ويرحبون بمقدمه، ومهما يكن من شىء فقد اصطحب التلميذ والأستاذ قرابة أربعين عاما لا يكادان يفترقان فى حل وترحال اذ ألف الأستاذ تلميذه وقدر ما لمس من دلائل نبوغه فكان رفيق الظعن والاقامة صحبة فى بلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب وفى حضرة عضد الدولة

البويهى فى فارس، واذا كان أخذ أبى الفتح عن أبى على محالا لا يستغرب فان التلميذ قد استحصد وآتى أكله فى عين أستاذه فكان يسأل عنه اذا استشكل الرأى فى معاضله ونضرب الأمثلة على ذلك بمثل ما جاء فى الخصائص جـ ١ ص ٣٦٥ «وقلت مرة لأبى على رحمه الله قد حضرنى شىء فى علة الاتباع فى نقيذ، وان عرى عن أن تكون عينه حلقية وهو قرب القاف من الخاء والغين فكما جاء عنهم النخير والرعيف كذلك جاء عنهم «النقيذ» فجاز أن تشبه القاف لقربها من حروف الحلق بها كما شبه من أخفى النون عند الخاء والغين اياهما بحروف الفم فالنقيد فى الاتباع كالمنخل والمنفل فيمن أخفى النون فرضه نفيله.

وقد عرض محققو كتاب «سر صناعة الاعراب لابن جنى» وهم الأساتذة مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وابراهيم مصطفى وعبد الله أمين إلى تعليل هذه الصحبة الطويلة بين الأستاذ والتلميذ تعليلا يؤيده السداد الثاقب نجمله فيما يلى:

١ ـ احتياج كل من الرجلين إلى صاحبه: فابن جنى طامح ناشىء يتكىء على صيت أستاذه وجاهه،

وأبو على فى حاجة إلى خدمة شاب مثقف بصير يذلل متاعب حياته ويسعفه بما يوفر وقته فى البحث والتنقيب اذ يميل إليه ما يحتاج إلى كشف وتنقيب.

٢ ـ توافقهما توافقا تاما فى الأخلاق والآراء، فلم يرد فى تاريخهما ما يعكر صفاء المودة، وقد كانا فى العقيدة معتزلين ولم يكونا شيعيين مع ما كانا فيه من نعم البويهيين وهم شيعيون، وكانا على مذهب واحد فى النحو وهو المذهب البصرى، ثم لا يأبيان أن يأخذا عن غير البصريين من الكوفيين والبغداديين وغيرهم، وكلاهما لا يبالى أن يخالف صاحبه ولا أن ينزل عند رأيه أو رأى غيره، وكلاهما كان متوسعا فى القياس إلى حد بعيد، واسع الأفق فى النظر والاستدلال.

٣ ـ ما كان بينهما من الحب والاعتزاز المتبادلين فكل منهما يفرط فى الثناء على صاحبه قولا وعملا ولا ثناء أقوى من اتصال الصحبة ودوام اللقاء هذا مجمل ما ذكره محققو سر الصناعة فى مقدمته الجزء الأول، وقد نقل الأستاذ العالم المغفور له